

## ثلاثة حوادث من التاريخ الإسلامي

ساعدت على نمو العربية وانتشارها

للأستاذ عبد الحميد العبادي

عضو بجم نواد الاول للغة العربية

بتدوين الحديث النبوي . الثالث أمر الخليفة المأمون العباسي ( ١٩٨ - ٢١٨ هـ ) بتكميل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية . وسأتكلم على هذه الأحداث الثلاثة واحدا واحدا ، مبينا الباعث عليه ، وكيف تم ، وأثره في نمو اللغة العربية وانتشارها . ثم أختم كلامي بالمقارنة بين ما حصل منذ أكثر من ألف سنة وما هو حاصل بالفعل بالإضافة إلى نهضة العربية في عصرنا الحاضر

إن نظام الديوان نظام مستحدث في الدولة الإسلامية ظهر على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب عندما توالى الفتوح وتدفقت الأموال من الأقطار المفتوحة ، فاقترضت الحال انحسار نظام لتقييد أسماء المقاتلة وقبائلهم ومبالغ أعطيهم ، فاستشار عمر ذوى الرأي على طاقته في كل أمر حازب وحدث مهم ، فأشاروا عليه بوضع الديوان

و « الديوان » كما جاء في دائرة المعارف الإسلامية لفظ يرادى الأصل له صلة بكلمة « دبير » ومعناها « الكاتب » . وقد أطلق في أيام الفتوح العربية على السجلات التي كانت تشتمل على حساب أموال الدولة ، ثم أصبح يضاف في العصر العباسي إلى كل فرع من فروع الإدارة العباسية ، فقالوا ديوان الزمام وديوان التوقيع وهكذا

ولقد كون عمر لجنة لتدوين أسماء الجند وبيان أنسابهم وأعطيتهم على نظام اتفق عليه وفصله الماوردي في كتاب « الأحكام السلطانية » فكان من ذلك الديوان المعروف بديوان الجيش . وهو أول ديوان وضع في الدولة الإسلامية وكان يحرر بالعربية من أول أمره . ثم تلاه ديوان آخر هو ديوان المال والجباية ، وكان مقر دواوين الأموال في عواصم الأقطار المفتوحة . وكانت تسجل فيها أسماء القرى ومساحتها ومقادير ارتفاعها وتوزيع ذلك على هيئة جزية أو خراج . وكان هذا الديوان يكتب في كل قطر بلغة أهله أو لغة الدولة التي كانت لها السيادة عليه قبل الفتح الإسلامي

نظرت في حوادث التاريخ الإسلامي فوجدت أن ثلاثة منها كانت ذات تأثير عميق بعيد المدى في نمو اللغة العربية وانتشارها العظيم . أول هذه الحوادث تعريب الدواوين على عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ( ٥٦٥ - ٥٨٦ هـ ) . الثاني أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ( ٩٩ - ١٠١ هـ )

يحول بينهم وبينه ، كما يحول قوام صورة الإنسان الظاهرة بينهم وبين ما فعلوه في شقيقتها وقربنها

\*\*\*

الحياة إحساس محض ، والحس حر مطلق ، فأبما مذهب أو جماعة أو دولة ، حاولت أن تدمج بالخلل حسا في حس ، وأن تطابق بالحدیمة إحساسا في إحساس ، فلا غاية لها إلا استمباد أحرار الحياة ، وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة : بالكذب والمكر والتمرر والخلل والحدیمة والمبث . إنهم يريدون أن يجملوا الذهب أو الجماعة أو الدولة ، طاغوتا يبيده المثلون دامين متضرعين « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون » أليس هذا بحسبك بمد الذي أفضت فيه . وقد عرضت لك جانبا من خواطر نفس حائرة تصفحها ، فتفكر وتدبر ، واحذر ما يقول الفائل .

فبينما الأمر تزجيه أصاغره إذ شمعت فحة شهباء تستمر تعين على من بدوايها مكايدها عبياء ، ليس لهاشمس ولاقر

محمد محمد شاكر

حتى أرى ، ففعل ، فقال له تمارض ! فتمارض ، فبعث إليه الحجاج طبيبه ، فلم يرب به علة . وبلغ زادان فروخ ذلك فأمره أن يظهر . ثم إن زادان فروخ قتل في أيام عبدالرحمن ابن محمد بن الأشعث الكندي ... فاستكتب الحجاج صالحا مكانه فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين زادان فروخ في نقل الديوان ، فعزم الحجاج على أن يجعل الديوان بالعربية وقلد ذلك صالحا . فقال له مراد نشاء بن زادان فروخ : كيف تصنع بدهوبه وشيشويه ؟ قال اكتب عشرون نصف عشر ! قال فكيف تصنع بويد ؟ قال : اكتبه « وأيضاً » والويد التيف والزيادة تراد . فقال : قطع الله أسلاك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية ! وبذلك له الفرس مائة ألف درهم على أن يظهر المعجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك ، فأبى ونقله . فكان مجده الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد يقول لله در صالح ! ما أعظم منته على الكتاب ! » . ويقال إن الحجاج أجل صالحا أجلا حتى قلب الديوان »

هذا عن نقل ديوان العراق وفارس . أما ديوان الشام فيروى البلاذري أيضا سبب نقله فيقول « قالوا ولم يزل ديوان الشام بالرومية حتى ولى عبد الملك بن مروان . فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر بنقله ، وذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج أن يكتب شيئا فلم يجد ماء فيبالي في الدواة ، فبلغ ذلك عبد الملك فأدبه ، وأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان ، فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ، ففعل ذلك وولاه الأردن . فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأبى به عبد الملك ، فدعا بسر جون كاتبه ، فمرض ذلك عليه ، ففمه ، وخرج من عنده كئيبا ، فاتيه قوم من كتاب الروم ، فقال : اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة ! فقد قطعها الله عنكم ! قال وكانت وظيفة الأردن التي قطعها له مائة ألف وثمانين ألف دينار »

أما ديوان مصر فيقول الكندي في كتاب « القضاة والولاة » في أمر نقله « وبويع الوليد بن عبد الملك ...

فكان ديوان العراق وفارس يكتب بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية ، وديوان مصر بالرومية والقبطية . وكان يتولى شئون هذه الدواوين عمال من أهل الأقليم ، فكان عمال ديوان العراق من موالى الفرس ، وعمال ديوان الشام من الروم ، وعمال ديوان مصر من الروم والقبط

وقد ظلت دواوين المال والجباية تكتب في الأقطار المفتوحة باللغات الأجنبية المذكورة يتولاها عمال من موالى الفرس والروم والقبط حتى كان زمن عبد الملك بن مروان . وكانت العربية قد انتشرت بين الأعاجم وحدقها قوم منهم إلى جانب لغاتهم الأصلية . ثم أن الدولة الأموية قد أصبحت راجحة النفوذ في الميزان الدولي ؛ هذا إلى عصبيتها الشديدة لكل ما هو عربي ، فلم يكن من الطبيعي أن تظل دواوينها تكتب بنبير العربية . وانجهدت سياسة عبد الملك إلى تعريب إدارة الدولة ، وبدأ بالعملة فصرها عربية بعد أن كانت رومية وفارسية . قال البلاذري بأسناده أن عبد الملك أول من ضرب الذهب بعهد عام الجماعة أى سنة ٧٤ . وضرب الحجاج الدراهم آخر سنة ٧٥ ثم أمر بصرها في جميع النواحي سنة ٧٦ هـ . ثم أجهت عزيمة عبد الملك وعمله الحجاج إلى تعريب الدواوين

يروى البلاذري نقلا عن المدائني عن أشياخه في بيان السبب الذي من أجله نقل ديوان العراق فيقول « قالوا لم يزل ديوان خراج السواد وسائر العراق بالفارسية ، فلما ولى الحجاج العراق استكتب زادان فروخ ابن يبرى ، وكان معه صالح بن عبد الرحمن مولى بنى نعيم بخط بين يديه بالفارسية والعربية ... فوصل زادان فروخ صالحا بالحجاج وخف على قلبه ، فقال له ذات يوم إنك سبني إلى الأمير وأراه قد استخفني ، ولا آمن أن يقدمنى عليك وأن تسقط . فقال لا تظن ذلك ! هو أحوج إلى منته إليك ؛ لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيرى . فقال والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحولته . قال فحول منه شطرا

عربية شعبية تبين لنا المصرية منها خاصة مجموعات البردى التي كشفت في مصر والتي تصاحب تاريخ مصر الإسلامي من أول الفتح العربي إلى القرن السادس

تشمثل هذه الوثائق النفيسة على رسائل صادرة عن ولاية مصر مثل قرعة بن شريك وغيره وبعض المثقفين من العرب ومكتوبة بلغة صحيحة فصيحة ، كما تشتمل على عدد عظيم من وثائق البايكات والمدائبات ، عقود الزواج والتملك والشئون اليومية ؛ وهذه مكتوبة بلغة شعبية مياينة للفصحى وفيها كثير من خصائص العامية المصرية الحاضرة ، من ذلك إبدال الضاد من الظاء في « إحفص » بدلا من « إحفظ » وإسقاط المهزة رسما ونطقا إسقاطا يكاد يكون مطردا فيقال « ورضا » بدلا من « وأيضا » و « وحده » بدلا من « أحد عشر » وعدم المبالاة بالإعراب فيقال « اثنين » حيث يجب أن يقال « اثنان » وهم جرا . وقد نشر جانبنا من هذه البرديات المحفوظة بدار الكتب المصرية الأستاذ المستشرق أودلف جروهان النموسى في ثلاثة أسفار كبار طبعها دار الكتب قبل الحرب الأخيرة كما وضع جنابه حديثا كتابا قويا في هذا الموضوع أسماه « من عالم البرديات العربية » وقد نشرته جمعية الدراسات التاريخية المصرية وأهم النتائج التي ترتبت على تعريب الدواوين من حيث مستقبل الثقافة الإسلامية أن أصبحت اللغة العربية الأداة الوحيدة للتخاطب لتبادل الآراء والأفكار في العالم الإسلامي الذي كان يمتد إذ ذلك من حدود الهند والصين إلى سواحل المحيط الأطلسي

\*\*\*

هذا ، عن تقريب الدواوين وما ترتب عليه من الآثار . أما تدوين الحديث النبوي فالمعروف أنهم كانوا طوال القرن الأول يكرهون كتابة الحديث حتى لا يكون إلى جانب القرآن الكريم كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه ؛ بيد أن هذا التحرج لم يمنع نفرا من الصحابة والتابعين أن يكتبوا مجموعات من الأحاديث لأنفسهم خاصة

فأقر أخاه عبد الله على صلاة مصر وخراجها وأمره بالدواوين فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية ، وصرف عبد الله بن أشناس عن الديوان وجعل عليه ابن ربوع الغزاري من أهل حمص<sup>(١)</sup>

ومهما يكن ما ترويه المصادر القديمة من أسباب مباشرة لتعريب الدواوين فالنبي لا شك فيه أن عبد الملك وابنه الوليد وعاملهما الحجاج كانوا شديدي العصبية لكل ما هو عربي ، وأن الدولة قد انجذبت إلى تعريب إدارتها كما قدمنا ، استكمالاً لظاهرة سيادتها وتوفير لكرامتها ولقد ترتب على هذا الحادث التاريخي الهام عدة أمور خطيرة : -

فالعربية الفصحى أفادت ألفاظا جديدة كثيرة كما يؤخذ من ترجمة دهوية وشيشوية ووبد ، فهي مثال لما حصل ، بالفعل على نطاق واسع . وظهرت في العربية ألفاظ كثيرة إما معربة أو منقولة عن أصولها الأعجمية المستعملة في الحساب والمساحة والزراعة والتجارة والصناعة مما لم يكن للعرب عهد به من قبل

ثم إن الأعاجم مسلمين أو غير مسلمين أقبلوا على تعلم العربية ، بما عل المصلحة الذاتية ، وذلك للانتظام في أعمال الكتابة والخراج وما يتصل بهما ، ولسهولة التقاضي في المنازعات التي كان ينظر فيها قضاء من العرب بطبيعة الحال . وبذلك لم يكده يتصرم القرن الأول الهجري حتى كانت العربية قد عمت أهل فارس والعراق والشام ومصر وغلبت الفارسية والرومية والقبطية على أمرها فأخذت هذه تتضاءل وتضمحل حتى صارت إلى الزوال أو ما يقرب من الزوال وابتشار العربية بين الأعاجم واضمحلال اللغات الأجنبية ثم ذهابها ظهرت في الأقطار المفتوحة لهجات

(١) وإنما لهذا العرض التاريخي أقول أن سعادة السيد حسن حسني عبد الرواب باشا العلامة التونسي وعضو مجمع نواد الأول للغة العربية أخذني أن ديوان المغرب نقل من اللغة اللاتينية إلى العربية في حوالي الوقت الذي عربت فيه دواوين المشرق وأنهم عثروا في من يدواحي المغرب على دينار عربي من زمن الأمير موسى بن نصير

علوم اليونان وكانت هذه العلوم قد نقلت إلى السريانية في الشام والعراق رغبة من النساطرة واليعاقبة في درسها بلغتهم مبالغة منهم في مقاطعة اللغة اليونانية ، لغة الكنيسة البيزنطية التي انفصلوا عنها من الناحية الدينية . وكان أكثر ما يدرس في هذه المدارس الفلسفة اليونانية وخاصة المنطق وما وراء الطبيعة ثم الطب والنجوم والكيمياء . وقد نقلوا كذلك كتباً عدة في الرياضيات وغيرها عن الفارسية والهندية والنبطية والنبطية

واستمرت هذه الحال في العصر الأموي وأخذ الملون يتصلون شيئاً فشيئاً بهذا الجو العلمي الذي كان يسود الشرق الأدنى بفضل مدارس الإسكندرية وأنطاكية وقصرية ونصيبين والرها وجنديسابور حتى رويوا أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية درس الكيمياء على راهب اسكندري اسمه ماريانوس وأنه ألف في الكيمياء ثلاث رسائل . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة هذه العلوم ، وكان للخليفة المنصور ولع خاص بالطب والنجوم فترجمت له كتب في هذين العلمين عن السريانية . وكان للبرامكة أثر كذلك في تشجيع النقل عن السريانية والفارسية ، فلما جاء المأمون وكان ميالاً بطبعه إلى البحث الفلسفي وآراء المعتزلة كالتقول بخلق القرآن وغيره من مسائلهم ، فقد سلك مسلكاً جديداً بالرة ، إذ أنشأ في بغداد «بيت الحكمة» للدرس والبحث . والظاهر أنه حدا بيت الحكمة هذا على مثال مدارس السريان التي أشرت إليها ، ثم إنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة الإغريقية عن اليونانية رأساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية وغيرها . ويروي ابن النديم في «الفهرست» السبب الذي بثت المأمون على ذلك وهو أن المأمون رأى في منامه أرسطوطاليس وسأله بعض الأسئلة ، فلما نهض من نومه طلب ترجمة كتبه ، فكتب إلى ملك الروم يسأله الأذن في إتخاذ ما يختار من الكتب القديمة المدخرة ببلد الروم ، فأجابه إلى ذلك بعد استئذان ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم

لا يقصد النشر والتداول . فلما ظهرت أحاديث لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين قوى الاتجاه إلى تدوين الأحاديث الصحاح . يروي الخطيب البغدادي في كتاب «تقييد العلم» أن ابن شهاب الزهري قال لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق تنكرها ولا تعرفها ما كتبت حديثاً ، ولا أذنت في كتابته . فلما ولت الخلافة عمر بن عبد العزيز أمر ابن شهاب الزهري بجمع السنة وكتابتها . وعن إبراهيم بن سعد قال «أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن فكتبناها دفترًا دفترًا فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا» . ثم استفاض تأليف الكتب في الحديث بعد ذلك حتى كانت الكتب السنة الشهورة

والذي نخصه بالملاحظة من هذه المظاهرة العظيمة أن الأحاديث سواء كانت مروية باللفظ أو بالمعنى ، هي في طبقة عالية من البلاغة فأفادت اللغة من تدوينها نموذجاً للعبارة البليغة مكن للفصحى بعد المنزلة التي بلغتها بالقرآن الكريم أي تمكين . وإن حرص المسلمين في كل عصورهم على هذين المصدرين الأقدسين وبالغ عنايتهم بهما أقام الفصحى على أساس راسخ لا يتطرق إليه وهن مادام في الأرض مسلمون وإسلام

ثم إن الأحاديث الروية عن الرسول العربي تعتبر المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي ، ومن ثم وضعت كتب في الحديث مرتبة على أبواب الفقه كموطأ الإمام مالك ومسحج البخاري فكان منها مادة عظيمة غنت لغة الفقه الإسلامي وعلوم الحديث وانبعثت فيها تغييرات ومصطلحات يعرفها من يطلع على الكتب المؤلفة في هذين العلمين الجليلين

\*\*\*

ثم انتقل ، إلى الحادث الثالث وهو أمر المأمون بنقل كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية ، فأقول لما فتح العرب بلاد الشام والعراق ومصر وجدوا في أمهات مدنها مدارس للسريان والفرس والقبط تدرس بها العلوم القديمة وخاصة

نفسها من قوة وحيوية عجيبة ، ثم بفضل السياسة التي انتهجتها الدولة بأزائها على النحو الذي بيناه وأخيرا أختتم كلتي فأقول : ما أشبه الليلة بالبارحة ، فبعد مضي أكثر من ألف سنة عادت اللغة العربية إلى شبه الحال التي كانت عليها في أزهى عصور الإسلام . لقد عرت دواويننا بمد أن كانت تكتب بلغات أجنبية بين تركية وفرنسية وإنجليزية ، ثم ها هي ذى حركة نقل قوية عن اللغات الأوربية في مختلف العلوم والفنون والآداب يقوم بجمعنا الموقر على توفير المصطلحات العربية اللازمة لإنجاحها . وكلما كانت العربية أداة التفاهم وتبادل الرأي والفكر في الدولة الإسلامية القديمة ، فلها بسبب أن تصبح كذلك في عالم شرقي حديث يمتد من أقصى إندونيسيا إلى مراکش . وهو لمعمرى أوسع وأشمل من العالم الإسلامي القديم . ولكن هذا معناه تزايد العبء الملقى على أبناء العروبة وحما لغة الضاد ، وأخص منهم بالذكر رجال بجمعنا الموقر ، أن الآمال المعقودة عليهم في جعل العربية تنهض في المستقبل القريب نهضتها في الماضي البعيد لآمال قوية لا يعرف اليأس إليها سبيلا . فإذا ما تحققت هذه الآمال وهي مشحقة باذن الله فيسكون للعربية شأن أى شأن في نشر الثقافة العليا في القارتين الآسيوية والأفريقية والله ولى التوفيق

عبد الحميد العبارى

الحجاج بن مطر وابن البطريق ، وسلم « صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا ، فلما حثاه إليه أمرهم بنقله فنقل . ثم أنه جعل يمحرض الناس على قراءة تلك الكتب ؛ ويرغبهم في تعلمها كما يذكر ابن العبرى في كتابه مختصر تاريخ الدول

واقصدى بالأمون كثير من رجال الدولة وجماعة من أهل الوجاهة والثروة في بغداد ، فتقاطر إليها المترجمون من أنحاء جزيرة العراق والشام وفارس وفيهم النساطرة والبياتية والصائبة والمجوس والروم والبراهمة يترجمون من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية واللاتينية وغيرها . وأقبل الناس على الاطلاع والبحث أيما إقبال . وقد ظلت الحال على ذلك حتى أنه لم يكده ينهى القرن الرابع حتى كان قد تم نقل أهم كتب القدماء إلى العربية ولقد كان أثر هذا النقل الواسع الذي عظمها بالإضافة إلى اللغة العربية فقد نقل المترجمون مئات الألفاظ الفلسفية والطبية والكيميائية والرياضية وغيرها إلى اللغة العربية ، مترجمين بعضها إلى ما يقابله في العربية وناقلين بعضها بلفظه مما جعل من علماء اللغة على أن يخلصوه بتأليف خاصة مثل كتاب « العرب والدخيل » للجباليق . ومهما يكن من شئ فقد كسبت اللغة العربية مادة غزيرة وفيرة مكنت النحاة والتكلمين والفلاسفة الإسلاميين من خوض مسائل علمهم المختلفة بلغة موالية وألفاظ دالة على المعاني التي يريدون التعبير عنها

\*\*\*

وبعد فإننا إذا اعتبرنا ما أداه تعريب الدواوين إلى اللغة العربية في مجال المصطلحات الإدارية المسالية ، وما أنتجه تدوين الحديث في مجال السنة والفقه ، وما أتمه نقل كتب الفلسفة والطب والرياضة والكيمياء في ميدان العلوم الدنلية والطبيعية فإننا نجد أن اللغة العربية قد أصبحت في القرن الرابع هجرنا خضما مما اقتضى وضع معاجم تجمع ماديتها ونشرح معاني مفرداتها . وهذا كله بفضل ما في هذه اللغة

## أسف واعتذار

نعتذر آسفين لمشركى الرواية من توقفها عن الصدور بسبب الحسارة الفادحة التي منينا بها في أعدادها الخمسة التي ظهرت ، ورجو ممن دفعوا بدل الاشتراك سلفنا أن يستردوه نقدا أو يشتروا به كتبنا من مطبوعات الدار